

حرفة الأدب

للاستاذ عباس حسان خضر

—•••••—

الملت' في مقال « نظرات في أدب التأخرين » المنشور في عدد مضى من « الرسالة »^(١) بحرفة الأدب إلماًاً وجيزاً . وقد رأيت أن أجيل القلم في نواح من هذا الموضوع أوجزت القول في بعضها بالقال السابق ، ثم رأيت أنها تحتاج إلى شيء من البسط ، والنواحي الأخرى جال بها الفكر بعد .

قلت في ذلك المقال : « وكثيراً ما حاق البلاء بالمشتغلين بالأدب لما شغلهم عن تدبير أمرهم ودفع ما نزل بهم ، حتى عدت حرفة الأدب مجلبة للبؤس وشؤماً على من أدركته » .

فقد سارت كلمة « أدركته حرفة الأدب » مسير المثل ، فقال في كل أدب يناله شر ، وعند كل حالة يُمنى فيها بالخيبة والإخفاق . وكل أمر يقترن بالمحن والرزاياء معدود في المشائم ، سرى بجزائه دون نظر إلى الملائسات ؛ فالأديب إنسان له حاسة سادسة إلى حواسه الخمس ، هي طبيعته الفنية التي تستعمل الحواس الأخرى في إحساسها بنواحي الحياة إحساساً يفرد به الأديب كما يفرد ببيان لا يتأني لغيره من سائر الناس ، وهو بفنه هذا مشغول ، مستهلك جل قواه ، مصروف عن مقومات حياته وضرورات عيشه ، فإذا مسه ضرٌ عُدَّ أدبه شؤماً وقيل : « أدركته حرفة الأدب » .

فلست أرى الشؤم من واقع الأمور ، وإنما هو حالة نفسية تنشأ عن اقتناع بأن التشاؤم منه يجلب الشر والأذى ، ومن مقتضيات هذه الحالة تهيب التطير منه والإعراض عنه أو الإقبال عليه مع الكره وتوقع الشر ، وكأن التطير يستدعي بذلك ما يخشاه ، وكأنه يهيب نفسه ليكون مهيأ له ؛ فتستجيب له النواصب وتزل بساحته الكوارث وقد أعد لها .

ولست أرى بأساً على من يفتح عنه خاطر التشاؤم ولا يدع له إلى نفسه سبيلاً ؛ وقد اقتنع بذلك ابن الرومي (وهو رأس المتشائمين والقائل : القائل لسان الزمان ، والطيرة عنوان الحدثنان)

لما أنشد أحد الشعراء وقد علم أنه يتطير :

ولما رأيت الدهر يؤذن صرفه بتفريق ما بيني وبين الجباب
رجعت على نفسي فوطنتها على ركوب جيل الصبر عند النواصب
ومن صعب الدنيا على جور حكمها فأيامه مخوفة بالمصائب
نخذ خلسة من كل يوم نعيشه وكن حذراً من كامنات العواقب
ودع عنك ذكر الغال والزجر واطرح

تطير دار أو تفاؤل صاحب
راقت هذه الأبيات ابن الرومي ، وتأثر بها ، خلف ألا يتطير أبداً « من هذا ولا من ذاك » وأوماً إلى جاره الأعور ، وكان يتشام منه . فقال له أحد الحاضرين : « وهذا المخاطر من التطير » فهو وإن كان اقتنع رأيه بفساد مذهب التطير فقد غلبته طبيعته فأخطرت له التطير وهو يحلف ألا يتطير !

على أنني أعود من هذا لأشاطرك ما لا بد أنه يجول بذهنك وهو أن الأدب لم يكن دائماً قربنا للبؤس والحerman ، وليس كل أديب كيعقوب الخزيمي القائل :

ما ازددت في أدبي حرفاً أسريه إلا تزيدت حرفاً نحتته شوم
ويخطر لك هذا لأنك تعلم أن الأدب نفع ورفع كثيرين ، فأناهم المال ، وأبلغهم الناصب . وقد اختلفت حظوظ الأدباء من حيث انتفاعهم بأديبهم أو (إدراك الحرفة إياهم) باختلاف أسباب ، بعضها من ذات أنفسهم ، وبعضها خارج عن ذواتهم ؛ فالنوع الأول كالباء الأديب واستنكافه أن يسلك مسلكاً يراه غير لائق ، وليس في المجتمع الذي يعيش فيه غيره من طرق الانتفاع بالأدب ، على حين لا يتحرج أديب آخر من ذلك ؛ أو أن يكون الأديب واسع الحيلة أو ضيقها ، أو حسن التدبير أو سيئه . والنوع الثاني من تلك الأسباب كظروف الزمان والمكان ، فهذه دولة يشجع رجالها الأدباء ، على مختلف بواعث التشجيع ، وبمختلف وسائله ؛ وتلك أخرى يحتجن أساليب البر عن الأدباء ، أيا كانت أسباب هذا الاحتجان . وقد لا يكون الأديب بحاجة إلى الانتفاع بأدبه ، لأن له من ثرائه أو كسبه من طرق أخرى ما يفنيه عن ذلك ، فيتنقل بين زهر الآداب ، ويفرد على أفنانها لا شيء إلا ليرضى حاجة نفسه ، ويمكن (حاسته السادسة) من القيام بوظيفتها .

ومن أدركتهم حرفة الأدب في عصرنا أفراد معروفون بالانتحال ، بنشئون المقال أو الخطبة أو القصيدة أو الكتاب ، وينحلونه من لم تدركهم الحرفة لقاء قروش أو جنيهات محدودات فيتسلق هؤلاء المجدودون أولئك الحرفاء ، لأنهم لاسيقان لهم في الأدب يقومون عليها . وهؤلاء وأولئك يرتكبون التدليس والتزوير في الأدب ، حتى ليصح أن يقال إن الأدب أدركته حرفة ! فنكتبه بهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ...

وخلص من كل ذلك إلى ما قررناه وهو أن الأدب لم يكن دائماً مجلبة للشقاء والحلمان ، بل كثيراً ما كان سبباً إلى النعمة والرفاهة ، فلا يصح أن نقرنه بالشؤم ، لأنه يتخلف عنه ، وما بالذات لا يتخلف ، كما يقول الفلاسفة .

على أن فن الأدب نفسه متعة ؛ فإن لم يصل به صاحبه إلى الأعراض الأخرى بحسبه إمتاع فنه والحياة الرفيعة التي يضطرب فيها بفكره وصفاء روحه ، والله المستعان .

عباس ماهر فخر

صلاح الدين المنجد

يقدم كتابه الجديد :

الطرفاء والشحاذون

في بغداد وباريس

وهو كتاب طريف لطيف ممتع

لا تستطيع أن تتركه حتى تقرأه كله

يطلب من إدارة مجلة الرسالة ومن سائر المكتبات الشهيرة

ونعته ١٢ غير أجرة البريد

وبالطبع كانت تروج كلمة « أدركته حرفة الأدب » كلما توافرت معوقات الاكتساب ، وأنت تراها قد قلت في عصرنا هذا ، فإن التأليف والصحافة قد أصبحا سوقاً نافقة للكتاب وخاصة المروفين منهم لدى جمهور القراء ، وقد ربح بعضهم في السنوات الأخيرة ما يعد من جملة أسباب « التضخم النقدي » وما يؤسف له أن هذا الريح الوفير قد أغرى الكثيرين بكثرة الإنتاج التي لا تتم إلا باللهوجة والسلق ، ولا سيما سلق البقول التي تجمع من حقول الأسفار ، فتصنف المؤلفات كما تصنف (شربة الخضر) كأن الأذواق الأدبية قد اعتلت ، فهم يصنعون لها هذا اللون من الحساء ... !

وقد عمد مدبرو بعض المجلات الشعبية إلى بعض الكبار من الكتاب يستكتبونهم بأجور مغرية ، ومفهوم أن أصحاب هذه المجلات يقصدون ترويحها أو ازدياد رواجها بأسماء المشهورين من الأدباء ، ولكن بعض هؤلاء الكتاب الفحول أسفوا في كتاباتهم لأنهم قصدوا إلى الدنو من ذهن القارئ العادي ، وطلبوا طرائف الموضوعات فلم يوفقوا ، وتكافؤوا الطرف ومسارة روح تلك المجلات ؛ وذلك ليس في طبعهم ، فجاء إنتاجهم في هذا المضمار بانحاً لاغناء فيه .

وانت تدرك حرفة الأدب هؤلاء وأولئك خير من إفساد السوق الأدبية بردي المنتجات ، وإفساد السوق الاقتصادية بتضخم النقد واستمرار الغلاء .

وإن من حق الكتاب الناضجين - بلا شك - أن يستثمروا فنههم ويجنوا ثمرته ، ولذلك أتره في حفز الهمم وشحذ القرائح ، ولكن من حق الأدب ومن حق « مهلكيه » إجادة الإنتاج وألا يزال الكاتب من أنواع الكتابة إلا ما يحسنه ، وإذا كانت المصانع المشهورة تحرص على جودة مصنوعات لها لأنها تحمل أسماءها ، أفلا يجدر بهؤلاء الكتاب المشهورين أن يتعهدوا أسماءهم بالجلاء والعقل ؟

أما الشعراء فلم يعد لهم سبيل لائق بكرامة الأدب في العصر الحديث إلى الاكتساب من فنههم ، وكما كان ظريفاً ذلك الشاعر - وهو من أساندة اللغة العربية - الذي قال : إنني أنتكسب بالشعر ولكن لا بشعري أنا وإنما بألفية ابن مالك !